الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر و فى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى.
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٤٨ — ٢٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٧ — ١٥ يناير سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة

من صور الريف

جليلة

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

رآها أول مرة بعد عودته ، ولم يبق من الشمس إلا حمرة طفيفة فى أطراف السعف ؛ وكانت كعادتها كل مساء قافلة إلى القرية بعد أن سقت بقرتها من قناة قريبة

أخذتها عيناه مقبلة فسار للقائها وإنه من فرحه ليطفر كما يطفر العصفور ، وإن قلبه ليخفق خفقات يكاد لا يقوى عليها جسده ، فلقد ارتهكت مفاصله حتى ما تحمل رجلاه بدنه إلا فى مشقة

وأخذته الحيرة وهو يدنو منها ماذا عساه أن يقول بعد هذا الغياب ؛ وجعل يدور بعينيه ليتبين ما إذا كان أحد يراه من أهل القرية ... ولكنه حين أصبح منها على خطوات وحين وقعت على محياها عيناه أحس من نظراتها كأنما أصاب قلبه سهم مسموم ...

ومرت به الفتاة مصفارة الوجه لا تكاد تنفرج شفتاها على رغمها عن بسمة كالشعاع الخائف ، حتى تطبقهما كأنما تدارك أنها تأتى شيئاً محرماً ، وتتجهم للفتى وتتنكر كأنه بات من عدوها ؛ ثم تدور بوجهها متظاهرة أنها تزجر بقرتها فتجذب حبلها وتستحثها ولا تستقبل الطريق حتى تفوته بخطوات .

ويقف هو كالتمثال لا يبى ولا يتحرك ، وقد جف ريقه وتصبب بالعرق جبينه ، ويظل على تلك الحال الأليمة حتى ينتبه بعد لحظات على صوت رجل يحييه وقد مر به مسرعاً على ظهر دابته . . . فيمد عينيه ويرسل بصره فلا يراها تلتفت وراءها مرة حتى تغيب عنه . فيكاد يأكل الغيظ قلبه ويود لو أنه استطاع أن يسحقها أو يسحق ذلك القلب . ثم إنه يجر رجليه بعد ذلك جراً لا يدرى أين يذهب ؛ فهو مأخوذ عن نفسه كمن نزغه من الشيطان نزغ !

كان ذلك أول الصيف وقد عاد على إلى القرية يلتمس فى مسارحها الراحة بعد العناء ، ويقضى لبانة نفسه وأرب مشاعره من فنون السحر وضروب الجمال فى مجاليها ؛ وإنه ليجعل للقرية كل عام أجازته الطويلة اللهم خلا أيام معدودات يقضيها غريباً على بعض السواحل . . . وإنه ليحس كلما عاد إلى منبته ومنجم أرومته مثل إحساس النبات جئ به إلى بيئته وتربته فترعرع واستغلظ واستوى على سوقه . . .

السماء حلو النسيم تعبق أنفاسه الرخية فى غير انقطاع ولا وناء ؛ والأفق للغربى بارع الرواء تطرز حواشيه ظلال الغروب وتتجمع فى جوانبه ألوان الشفق ، والحقول منبسطة أمامه إلى آخر ما يمتد إليه بصره ، وهى بين خالية تتناثر فيها بقايا عيدان القمح بعد الحصاد ، وحالية تزينها شجيرات القطن الغالية التى تقرأ العين فى سطورها مبلغ عناء الزارع وكده ، وشجيرات السرو والصفصاف والجميز على جوانب الغدران مورقة فينانة تتباعد حيناً وتتقارب أحياناً فتكون منها خمائل بهيجة لا تمل الأعين من النظر إليها

ولكن عليا يحس أن هذا المجتلى الساحر قد شملته فى تلك الساعة كآبة قابضة فلم يعد يرى شيئاً من رواءه ؛ وإنه ليخيل إليه كأن مزيجاً غريباً من الوجوم والوحشة بات ينشى الفضاء من حوله وأن بالشجر مثل ما به من هم فهى تمايل من فتور ومسكنة ، ثم إنه يرى فى لون الشفق مثل حمرة الجفون قرحها النحيب والسهر . . .

وصلت جليلة إلى دارها فربطت بقرتها وألقت أمامها بعض العلف ، ثم تناولت جرتها من فوق المصطبة القائمة فى مدخل الدار وخرجت لتملأها من الساقية ، وسارت ثقيلة الخطى كأنما ينقض ظهرها عبء . . . وجلست عند الساقية حتى يأتى دورها ، وصاحباتها يتضاحكن ويتعابثن ، وهى عنهن فى شغل بما يثقل فؤادها ، وهن لا يدرين ماذا يكربها وكانت من قبل بينهن أسرعهن إلى المزاح وأسهرهن عند المداعبة ، كما كانت تفوقهن جميعاً على كثرتهن عذوبة روح وخفة حركة . .

وعادت تحمل الجرة فوق أثقالها ، فوضعتها حيث كانت ثم صعدت إلى سطح الدار فجلست على التراب شاخصة إلى القمر وبوجهها مثل ما بوجهه من شحوب ومثل ما به من ملاحة

ودخل على القرية فى نور القمر وإنه ليتوارى من الأعين فى ظلال النخيل والشجر ، ولا يدرى لماذا يحس فى نفسه الرغبة ألا يراه الناس ؛ ولما بلغ منزله وهو فى القرية أول ما تقع عليه عين القادم من الحقول ، صعد إلى حجرته ونادى الخادمة فأشعلت له المصباح ؛ ثم صرفها مشدداً عليها أنه متعب فلا يحب أن يرى أحداً وأنه عما قليل سيأوى إلى مضجعه

وأخذ الفتى يفكر وقد طافت برأسه الوساوس وأخذته الحيرة من أمر تلك الفتاة التى طالما كانت تبتغى إلى قلبه الوسيلة وتجهد فى استرضائه وتحرص على مودته ، والتى بلغ من سرورها بلقائه فى العام الماضى أنها لم تقو وهى فى سرب من صاحباتها على كتمان ما بها حتى لقد سقطت جرتها فتحطمت وبللت ملابسها وزادتها ربكة على ربكتها

وكيف يحمل على الصبر نفسه ، وهو يرى فى هذا الجفاء إهانة له ، وأى إهانة أشد وقعاً على نفسه

من أن يتقدم بالزلفى إلى فتاة لا يحسبها تزيد فى المرتبة عن خادمته ، فتشيح بوجهها عنه ولا ترعى له مقاماً !

ثم إنها تظهر الجفاء على غرة فلا تحفظ الجميل ولا تذكر ما كان بينهما من مودة ولا ما كان منه على بعد ما بينهما فى الدرجة من ملاطفة وإحسان

وزين له شيطانه أن بعض الحاقدين قد سعى بينها وبينه ، فود لو يعرفه ليذيقه من بأسه وليريه عاقبة تطاوله ثم ليريها معه مبلغ ماله من جاه وسطوة وليفهمها أنه إن عفا عنها فما ذلك إلا لضعفها وهوان شأنها عنده

وتطوف برأسه فكرة تعذبه وتزعجه فهى قد آثرت عليه غيره ؛ وهذا الذى باتت تؤثره قد أخذ عليها العهد ألا تكلم الناس وعلى الأخص لا تكلمه هو ، وإلا فهو لن يعرفها إن فعلت . . . وهى إنما تنفذ الآن ما أمرها به لا تتهاون فيه ، وما أشد ما يغيظه منها هذا الاذعان لصاحبها وهو لا يراها . أفما كان منها كلمة ثم تنطلق فى سبيلها ولا تفجأه هذه المفاجأة الشنيعة الوقحة ؟

ثم إن الفتى يفزع إلى النوم من هذه الوساوس فيطفىء المصباح ، ولكنه قبل أن يذهب إلى سريره يطل من النافذة على القرية الهاجعة ، وقد غاب القمر ؛ وما يلبث أن يبتسم كأنما هو يسخر من نفسه ويضحك من أوهامه ، وكأنما يلقى بأفكاره فى هذا الفضاء المنبسط أمامه والذى تكتنفه الظلمة فلا يراه وإن كان يعرفه . . .

سخر من نفسه أن كان يحمل كل هذا الهم من أجل فتاة قروية ساذجة فقيرة ؛ ورأى المسألة أهون من أن تكدر عليه صفو أجازته ، فانه إلى الراحة فى هذا الصيف أشد حاجة منه فى كل ما سلف من الأعوام ، لما كان من نصبه فى الاستعداد لامتحانه . ولن يخرج الأمر فيما يظن عن أن يكون أبواها قد شددا عليها ألا تطيعه أو تطيع غيره من شباب أسرته

ومهما يكن من الأمر فهو لن يحفل بعد بما كان أو يلتفت إليه .

كانت جليلة فى الثامنة عشرة من عمرها يحسدها صبايا القرية على ما توافى لها من أسباب الجمال ، وكان اسمها على ألسنة الشباب كلما هفا بهم إلى الحب والجمال ذكر . . . وكانت تعرف ذلك فتدل به وتزهى ولا تزداد بالدلال إلا ملاحة وفتنة

وماذا عسى أن تبلغ الكلمات من هذا الجمال وفى مقدمة خصائصه الأعجاز ؟ وما كان النظر إليه إلا ليشعر الناظر لأول وهلة بالتحدى ، تحدى الريف أنه قد ينبت من الجمال نوعاً تتقاصر عنه المدن . . . وتحدى الطبيعة أنها تأتى إذا أرادت بمالا يحسن أن يأتى بمثله فن مهما تأتى له من قوة التخيل وعمق التأمل وبراعة الابتكار . . . وتحدي الفقر أنه قد يبلغ على ضمته منزلة يتحرق الغنى أن يبلغها ولو بخلع ردائه والهبوط من سمائه ، ثم من وراء هذا كله يرى الناظر ذلك السحر الذي يحس ولا يفهم ويعجب ولا يوصف ، ذلك السر الذى يكون قصارى أمرنا فيه هتافنا به وانجذابنا إليه وإذعاننا له

ولقد أحس على حينما وقعت عيناه على هذا الجمال أول ما وقعتا كأنما تمثل له طيف أحلامه هيكلا يمشى على الأرض ! وهو لا يدرى لتهافته على هذا الجمال سببا غير هذا السبب ، وكثيرا ما حدثه خياله الشاعر أن بهذه الفتاة القروية من السحر مالم ير فى غيرها من بنات الريف أو بنات المدن

كان يخيل إليه أن هذه القسامة لن توجد فى وجه غير هذا الوجه ، وكان إذا تأمل فى تكوينه يحار أى أجزائه بعث فيه تلك الفتنة الأخاذة وهاتيك الطلاقة الرائعة ، أهما هاتان العينان الساجيتان الدعجاوان ، أم هو ذلك الفم اللطيف الذى ترف عليه أحلام الصبا وتختلج فى بسماته عذاب المنى . . أم هو ذلك الأنف الذى يراه وكأنما صيغ ليتسق فى هذا

الجمال ... أم ترى هو ذلك الخد الأسيل المشرب الصفحة من حمرة الشفق ووضاءة البدر ؟

الحق لقد كان سر ذلك الجمال إلى هذا كله ، وقد ائتلف على صورة معينة اهتزت لها نفسه وجاوبتها روحه ، بحيث لو جاء على نسق آخر ما كان له في قلبه ذلك السحر العجيب ... أضف إلى ذلك سماحة ونضارة كانت منهما الروعة وكان فيهما السر

وكأنما أرادت الطبيعة ألا يكون في هذا الجمال نقص ، فأودعت فيها سر الأنوثة كأتم ما تكون الأنوثة وسوت هيكلها بحيث يكون بهجة في منظره ثم هو في حركته نوع عجيب من الألحان الصامتة التي تحس النفس فيها وإن لم تقصد معاني الائتلاف والتناسق والظرف . ولقد كان على يشبه حركاتها والتفاتاتها بما يكون من حركات المهرة الكريمة التي لم تتعلم شيئاً مما تبديه من رشاقتها فهي تأتي به لأنها هكذا خلقت ... وإنه ليراها من بعد بين سويحباتها فيميزها منهن بحركة أو التفاتة قبل أن تتحقق من شخصها عيناه

وكان لها صوت تجمعت فيه كل معاني أنوثتها وكل خصائص جمالها ، حتى لو قدر للمرء أن يسمع ذلك الصوت دون أن يرى صاحبته لدل عليها دلالة الصورة أو دلالة الوصف ! . . . صوت كأنما يعلن به الحب عن نفسه ثم هو يسوقه بعد دليلا على سلطانه

وكان في سجاياها شيء من الكبر فوق ما كان فيها من الدلال ... ولكنه كان كبراً تحبه النفوس إذ تشعر أن مبعثه الاحساس بالتفوق والميل إلى التسامي ، وما كان التبذل ليتفق وهذا الجمال ، بل ما كان التواضع إلا لينال من عنفوانه وينتقص من سلطانه ؛ وكثيراً ما استمتع على بهذا التكبر لأنه كان يكبر فيه معنى السمو ، وإنه ليعجب ويطرب لتلك النظرات التي كانت تنبعث من عينيها وهي في أسمالها ، فلا تكون أقل أنفة واعتزازاً من نظرات الناشئات في الحرير والورد ، بل لتكون أكثر عزة لأن فيها عفة هي مع الفقر غاية النبل

هكذا كان نصيب جليلة من الحسن ، بحيث لو جعلوا في الريف مملكة للجمال لاستوت هي على عرشه ، ولكانت وهي في عرشها المتخذ من الصفصاف والسعف والكافور والسمد ، أسمى منزلة في الجمال من كثيرات تربعن على عروش الذهب والدمقس

وكان على يستشرف للحادية والعشرين وهو في القرية سيد ابن سيد ، لأسرته الرياسة والحكم فيها منذ أكثر من مائة عام ، وقد انحصرت الرياسة في هذا البيت لا عن جبروت وبطش كما هو الشأن في كثير من البيوت في الريف ، ولكن عن كرم محتد وطيب عنصر وسماحة

ولئن لم تكن تلك الأسرة بذات ثروة واسعة ككثيرها من الأسر في القرى المجاورة ، فلقد كان لها من حسن سمعتها وعراقة أصلها ما رفع قدرها في أعين الأحباب والخصوم على السواء

وكان على يحب الفلاحين ويعطف عليهم ، وكثيراً ما كان يجلس إلى جماعاتهم يتفيأون ظلال الأشجار في أوقات الهجير وينعمون بالهواء الرخي على ضفاف الترع في ساعات الأصيل ويسمرون على جوانب البيادر في ليالي القمر ؛ ولقد أحبه هؤلاء الفلاحون وأكبروه ، وما لبثت أن ارتفعت بينه وبينهم الكلفة فصار كأنه أحدهم ؛ وهو في القرية يحس كأنما انقطعت الصلة بينه وبين المدينة حتى كأنه ما خرج منها قط ، وكثيراً ما كان يضحك بينه وبين نفسه ، إذا تصور ما عسى أن يقوله شاب من خلانه من أهل المدينة إذا هبط القرية ورآه في جلبابه الفضفاض جالساً في ذروة كومة من الرماد تحت سرحة أو على بقايا حصير في مصلى على ضفة قناة ! ولكنه لن يعبأ بذلك ولن يرى شيئاً أحب إليه من

أن يطلق نفسه على سجيتها

وكان لا يغيب عن القرية إلا ازداد حباً لها وتعلقاً بكل ما فيها ، فاذا آب راح يتملى كل شيء حسنه لا يستثنى منظراً مهما هان أمره ، وبخاصة تلك الملاعب التى كان لا يفتأ وهو غلام يثب فى أنحائها ويرف كما يرف الفراش ... تلك المسارح الخضراء فى ظلال النخيل وحول أشجار الليمون والنارنج فى بستان أسرته ... وهاتيك الظلال الوارفة التى تبسطها خمائل التوت على ضفة الترعة الكبيرة فى الحقل البعيد ...

وكان على يستصحب معه بعض الكتب كل عام وكان أكثرها دواوين شعر وقصص ، وما كان أعجب أمر هذا الفلاح الشاعر حين يقلب صفحات الشعر يقرأ تارة للمتنبي وتارة لبيرون فى تلك القرية فيرى فى كل شيء لمحة واختلاجة تصور ما تنطوى عليه نفسه ... إذ كانت مناظر قريته أعز عنده وأحب إلى فؤاده من كل ما تجيء به الكتب

فى وسط هذا الكون الذى ينسم بروائح الجنة وفى ميعة هذا الشباب المتوثب المتفتق ، وفى نشوة هذا الخيال الشاعر ، رأى على جليلة وكان ذلك منذ عامين حين كانت فى السادسة عشرة تسويها يد الطبيعة وتفيض عليها من رونقها ، وتبرز محاسنها وتوضح مفاتنها

رآها الفتى فعجب كيف لم يرها من قبل ، وما أسرع ما نسى ما بينها وبينه من الفوارق ، فصار يرى فيها خلاصة ما فى القرية من سحر ، وكأن جمال تلك القرية بكل ما يسع من المعانى قد تجسم فكان هاتيك الفتاة . بل لقد غدت عنده هى التى تبث فى تلك البقعة من الوجود كل ما يحببها إلى نفسه ويربطها بمشاعره

وحادثها فلم تعرض عنه أو تهيب من مودته . فكانت لا تزال غريرة لاهية ، ثم إنها كانت تراه يعطف على أخيها ، وهو فتى فى مثل سنه ، وكان أخوها يثنى عليه إذا جاء ذكره ويصف لأبيه وأمه طيب قلبه وتواضعه وسخاء يده . وعرفت جليلة هذا السخاء بعد حين فيما كانت تبيعه له من الخضر التى كان يشتريها ولا حاجة به إليها فينقدها أضعاف ثمنها وهو مغتبط بهذه الوسيلة التى بها يستطيع أن يعطيها من ماله دون تحرج أو استحياء ، وإنه ليذكر ما عراه من الاضطراب وعراها من الحياء يوم غير طريقته فى العطاء لأول مرة فقال لها : « خذى هذا ثمناً لتلك الخضر وهذا لك أنت »

واطمأنت الفتاة إليه وصارت تحرص على لقائه على علم من أمها إذ كان يسرها سخاؤه ؛ وما كان على يقبض يده عنها قط وما كانت هى تتردد أن تمد يدها لتنال ما يمنحها حتى لقد دعاه ذلك أن يحمل إليها من القاهرة بعض الهدايا كلما آب إلى القرية ، وإنها لتفرح بذلك أشد الفرح وما كان أشد غبطته وابتهاجه حين كانت تتقبل هداياه بقولها : « كثر خيرك يا سيدى . ربنا يخليك لنا »

ذكر على ذلك حينما رأى من الفتاة ما رأى من إعراض وصد ؛ وأخذته حال عجيبة من الحيرة والألم معا ؛ وصار إذا اتجه فكره إليها يتنازعه مزيج من الصفح والغضب والهم والتأسى ، وكثيراً ما كان يسخر من حاله ويردما هو فيه إلى الوهم والخيال ... ولكنه يعود فيسأل نفسه أهو يحب تلك الفتاة ؟ فاذا أجابته نفسه بالنفى تساءل فيم إذا هذا الهم كله من أجلها ؟ وماذا يهمه من إعراضها عنه وهى مهما تطاولت لا تزيد مرتبة على خادمته ؟ وإذا أجابته نفسه أنه يحبها ازدادت حيرته وراح يتساءل ماغرضه من هذا الحب ؟ إنه لا يعرف السوء ولا يطيق حتى مجرد ذكره ، وهو يسمو بروحه عن مواطن الغواية ، ويقوى على عصيان الشيطان قوة قلما تتاح لمن كان فى مثل سنه ، كما أنه من خياله وحسه يسبح أبداً

في عالم من الشعر والسحر لا يرى فيه الجمال إلا على أنه وسيلة تتخلص بها النفس من هذا الطين وتتطلع بوجهه سوب السماء ، ولكم كان له في هذا الجمال الذي أسبغته الطبيعة على تلك الفتاة ، من ضروب الوحي وصنوف الالهام

وإذا كان هذا أمره فلم يبق من غاية إلا الزواج ، ولكنها غاية أبعد من المستحيل ، فما زال سلطان العرف في مصر يضع بين الطبقات من الحوائل والعوائق مالا تكسره إلا ثورة جارفة أو حقب قد تمتد حتى تبلغ القرون . وهل يجوز في عقل أن يقدم شاب من أسرة كأسرته ، له مثل ثقافته ونظرته إلى الحياة ، فيمد يده إلى فتاة كتلك الفتاة التي ماعرفت سوى دارها وحقلها والتي مارأت غير أهل قريتها من الناس إلا من يجيئون إليها من الباعة والمشترين يوم السوق من كل أسبوع ؟ إنه لكي يفعل هذا لا بد له من أحد أمرين: السر، وهذا غير معقول ولا مقبول ولا طعم له، أو العلن، وهذا معناه في رأي الناس الجنون

وإذا كان هذا موقفه من جليلة ففيم إذاً كان اتصاله بها مدة عامين ؟ وكيف يفسر تلك الصلة ؟ ألم يك يحرص على لقائها فيجلس وإياها إذا جنهما الليل وسترهما عن أعين الرقباء وينعم بحديثها الساذج ساعة أو بعض ساعة ؟ ألم يك يعمد إلى المرور بحقلها الصغير مرتين أو ثلاثا في اليوم الواحد كلما علم أنها هناك في بعض شأنها ؟ ثم ألم يك يجعل مسيره عصر كل يوم في طريقها إلى الترعة لكي يراها تخطر بين أترابها من حاملات الجرار فلا يتحول بصره عن صدرها الناهد وعن قوامها المرهف الرشيق حتى تغيب عنه ، وفي نفسه نشوة قوية تهزه إثر نظرة من نظراتها أو إثر ابتسامة خفية لا تلبث حتى تطفئها وقد أتلج فؤادها أنه رآها ؟

ذلك كله حق لامرية فيه ولا أثر لخيال أو وهم ؛ ولكن ذلك كان قصاراه منها ؛ كان حسبه أن ينعم بالجمال في صورة من صوره وفي نمط من أنماطه وأن يستمتع به استمتاع صاحب الفن بتمثال من تماثيله ، فما كان يرى فيها أكثر مما يراه في دمية من الدمى إلا أنها تتحرك وتنطق وتبتسم !

والآن تعبس دميته وتمر به كأن لم يكن بينها وبينه شيء ! وما كان ذلك منها عن غضب فكثيراً ما رآها من قبل غاضبة، ولكنه يكن لم ير في ملامحها وعينيها من المعاني مثل مايرى اليوم ؛ إنه يرى القطيعة سافرة جلية بحيث لا يخالجه فيها شك ؛ وهذا الهم الذي ارتسم على محياها وتلك الصفرة التي باتت تغشاه وهذا السكون الذي حل محل الجذل والمرح في طبعها ، إنما هي دلائل لا يغفل عنها إلا غر أو أحمق . ولكن فلتفعل جليلة كما تشاء أو كما يشاء لها صاحبها فهو لن يشغل بها نفسه بعد اليوم . ذلك ما وطد عليه العزم

تجنب على طريقها فلم يعد يراها ، وأعرض عن أخيها فلم يعد يدعوه إليه ، وخاصم أمها فلم يعد يرد عليها تحياتها إلا بقدر ؟ ورأى أبوها أنه لا يتحرك للدفاع عنه إذا شكاه إلى عمه العمدة شاك من الدائنين أو إذا اعتدى عليه معتد من الفلاحين ؛ وحارت تلك الأسرة في ذلك أول الأمر ولكنهم ردوه إلى ماستقر في نفوسهم من معان وما علق بخيالهم من صفات ينعت بها كثير من الفلاحين في قرى مصر ذوي الجاه والنفوذ فيهم ، مهما تبين لهم مما ينهض دليلا على عكس ما يعتقدون ؛ وإنهم ليؤمنون بتلك الأفكار إيماناً كونه فيهم ما تعودوا أن يذوقوه من البطش والجور هم وأسلافهم طوال القرون وهم يعملون على تلك التربة ليأكلوا ويتنفسوا ولو كما تأكل وتتنفس الدواب !

ومضى شهر من الأجازة وعلي لا يرى جليلة ، ولكنه لم يطق أن يبقى حيث هو طول هذا الشهر ،

كما أنه لم يستطع أن يسافر فيبعد كل البعد ، ولذلك آثر أن يذهب إلى حيث يقيم جماعة من البدو فى حقل لأسرته بعيد فأقام هناك فى شبه عزلة ، وهو يتعلل بحاجته إلى الهدوء والراحة والهواء النقى

وخطر له ذات صباح أن يعود إلى القرية فولى وجهه شطرها ، وسار حتى أصبح منها غير بعيد فلمحت عيناه سرباً من البنات كن عائدات من الترعة ورأى فيهن جليلة فآثر أن يمشى على مهل حتى لا يدركهن ، ثم رأى إحداهن تتأخر عنهن فكاد يدخل فى روعه أنها هي لولا أنه تبين أنها عائشة ، ومن عجيب أمره فى تلك اللحظة أنه تأهب ليحدثها كأنما نسى غضبه وترفعه . ثم إنه أدرك عائشة فحيته باسمة وحياها ، فرأى فى وجهها وعينيها أنها تود أن تقول شيئاً ولكنها تحار كيف تبدأ الحديث فبدأه هو بسؤالها لم تخلفت عن صاحباتها ، وكأنما فتح لها هذا السؤال باب الحديث على مصراعيه فأجابت فى خفة وفى خبث :

— عاوزه أقول لك كلمه يا سيدى

— قولى

— رأيتك من بعد فأحببت أن أكلمك فأنا من أيام أريد ذلك

— وهل رأيتنى وحدك ؟

— لا . رأيتك كلنا وجليلة فى الأول

— لا . لا أحب أن أسمع اسمها أو سيرتها

— كيف وهى داعماً تذكرك وتشكرك

— كاذبة .. كاذبة ؛ قابليني فيما بعد ... قابليني فيما بعد

وأسرع على فى مشيته وترك عائشة فى حيرة شديدة واضطراب ؛ ولم يتوقف أو يبطئ حتى بلغ القرية فأسرع فدخل منزله ، وصرت عائشة بعد برهة وفى وجهها كدرة من أثر الخيبة ، وذهول مما فعلت به الدهشة

وأقبل الليل فأقبلت عائشة فأشارت إليه بيدها وهو جالس أمام داره ، فخف إليها فأسرت فى أذنه كلمات ثم انصرفت مسرعة وجلس هو يفكر ، وفى نفسه نشوة كنشوة النصر

أمام دار من تلك الدور المتواضعة ، فى درب من الدروب الضيقة خلف « دوار » العمدة ، اجتمع لفيف من الشبان لسماع « المواويل » يتغنى بها فى سكون الليل إبراهيم ، ذلك الذى يتبعه شباب القرية أينما سار ويتحلفون حوله فى كل سامر ، يمتعون أنفسهم بتلك الأغانى الحلوة التى يرتجلها فى يسر عجيب وفى رشاقة تسحر الألباب ويديرها على كل معنى يخطر له أو يقترح عليه . وكان إبراهيم فى تلك الليلة فى حال من التجلى ارتفع بها عن مستواه ؛ فلقد كانت ليلة من ليالى عرس صاحبه حسن ، ولذلك اكتظت الحارة بالجالسين حتى لم يبق فيها إلا ممر ضيق يسلكه القادمون فى عسر شديد ؛ وكان أمام دار حسن فى تلك الليلة « كلوب » وهاج يشيع الضوء فى الحارة كلها ، لذلك لم تجلس الفتيات كما تعودن أن يجلسن إلى جوانب الحيطان فأوين إلى سطوح الدور ليستمعن مستورات طروبات .. وعلى سطح إحدى الدور اللاصقة « بدوار » العمدة جلست عائشة وجليلة ؛ وكانت عائشة قد أغلقت باب دارها حتى لا يصعد إلى سطحها أحد من البنات

جلست البنتان على حافة السطح ، أما إحداهما فكانت مقبلة على إبراهيم تعى مواويله بسمعها وقلبها وأما الأخرى فهى جليلة فلم تلك تسمع شيئا وما هى إلا برهة حتى نزل شبح على سلم كانت وضعته عائشة على جدار « الدوار » ، وغمزت عائشة صاحبتها بأصبعها فأفاقت مرتاعة ونظرت فاذا هو على ! ..

ونهضتا للقائه فسار تابضع خطوات على استحياء

قد يده دون أن يتكلم وأخذتها عائشة فقبلتها، وأحنت جليلة تلثمها ولكنه شدها سريعاً وجلس قبلتنا أمامه ...

ولم يدر أول الأمر ماذا يقول، ولكنه داعبهما مشيرا إلى ما يسمع من معاني الحب تزخر بها أغنيات ابراهيم . ثم أشار إلى عائشة من طرف خفي فطلبت إلى جليلة أن تنتظرها برهة ريثما تعود ونزلت إلى فناء الدار ... فلما انفردا قال لفتاته :

— أهكذا يصير ما بيننا ؟

— لا شيء ياسيدى، أنا خادمتك، وسأبقى خادمتك . أنا « غلبانه » والناس يتهموننى إذا ... أعنى أخاف أن « يجيل بختى » .. وأنا أحلف لهم فلا يصدقوننى، أبدا لا يمكن أن أرى مثلك وسأبقى طول عمرى أحلف بحياتك . بس أنا خائفة من « ميلة البخت »

— وماذا أردت من مقابلتى ؟

— أردت أن أعتذر إليك وأرجوك أن تنسانى فأنا خادمتك يا سيدى فلا أستحق أن يهتم بى مثلك إنى لن أنساك أبدا ... أبدا ولى عندك ياسيدى مسألة : ابن عمك سيدى محمد يريد أن يحجز على الجاموسة فى نظير الايجار المتأخر فمن أجل خاطرى قل له ينتظر حتى يفرجها ربنا الله يخليك لنا يارب .

وأجهشت الفتـاة، ولـكنها كتمت بكاءها خشية أن يسمعها أحد، واستجمع على قوته وأخذها بين ذراعيه لأول مرة منذ رآها وضمها إلى صدره وأحس بدموعها تبلل شفتيه، ثم همس فى أذنها قائلاً : « لا تخافى فلن يحجز عليكم أحـد وأنا موجود » ... وهم فصعد على السلم وتركها وحدها فى حال أشبه بالاغماء، وآوى إلى مضجعه وهو لايدرى إن كان ماوقع حقيقة أم كان فى حلم! ورأى تلك الليلة فيما يرى النائم أن جليلة أمامه تتوسل إليه باكية وهو يصدها، وأمها من قريب تدعو عليه دعوة ارتاع لها فؤاده . . .

وأخذت الأيام تنصرم، وكان على يرى صاحبته من بعد إذا ساقته إليها المصادفة، وكانت إذا أمنت الرقيب تدنو منه فتحييه باسمه ويحييها . . . ولـكنه لم يعـد يرى فى وجهها شيئاً من تلك المعانى التى يفهمها العاشقون باللمحة الخاطفة دون حاجة منهم إلى لغة الـكلام ... وا كتفى على بذلك، وكأنما هان أمر تلك الفتاة عنده، فلقد استثمر الراحة بعد تضرعها إليه وبكائها بين يديه فى تلك الليـلة التى لا ينساها؛ وكان إذا همس بعدها فى نفسه هاجس أنها تخدعه، وأنها تحب فتى من طبقتها حاول أن يرضى بذلك، بل لقد صور له قلبه أن يكون قصارى حبه لها العمل على إسعادها ما وسعه الاسعاد، وكان يسأل نفسه كلما دبت الغيرة إلى قلبه : ماذا يريد منها؟ وماذا ينتظر سوى أن يحب فتى على شاكلتها تأمل من وراء حبه ما تأمله فتاة فى مثل عمرها ؟

وأوشكت أجازته أن تنتهى فلم يبق منها إلا شهر أو نحوه . وأقبل الخريف السمح على القرية يمسح عليها بكفه وينفحها بأنفاسه، وغصت الطرقات بين المزارع فى البكر والآصال بالبنات والصبية يسيرون جماعات إلى الحقول ويعودون منها بعدجمع تلك الثمرة البيضاء الغالية التى ما زال الفلاحون يعلقون عليها الآمال كل عام على رغم ما لحق بها من كساد وما أصابها من بوار . والمزارعون يعودون بالقطن فى الأعدال فيكون فى منظره وهم يدخلون به القرية فرحة السنة وبشير الخير، وإن كان منهم من يثنى على القطن وسنينه « اللى بقت زى الزفت »

وكان يحشد من أبناء القرية وبناتها عدد كبير لجمع قطن العمدة وأسرته، فبذل على كل ما فى وسعه لـكى تكون جليلة بين هؤلاء فيحدثها وتحدثه ولو مرة قبل أن يسافر، وما لبث أن تذكر أن أباها

مدين لابن عمه فلنمهل أياماً نظير جزء من هذا الدين وليضاعف هو لهـا الأجر سراً ، ولجأ إلى صاحباتها فجئن إليها ذلك كأنه من لديهن حتى قبلته من أجل أبيها؛ وسر على بذلك وأخذ يترقب في شوق شديد ...

وحان يوم الجمع في حقول الأسرة وخرجت جليلة مع « القافلة » كما يسميها الفلاحون في هذه القرية ، ولقد جرت العادة أن تكون على رأس كل قافلة امرأة تتعهد بجمع البنات تسمى « شيخة القافلة » وقابل على « الشيخة » في الليلة السالفة وأوصاها بجليلة وشدد عليها أن تتأكد من حضورها كل يوم

ولم يشأ أن يذهب على أول يوم إلى الحقل إلا عند الأصيل ؛ ولقد استطاع أن يحمل على الصبر نفسه طول النهار، ولما ذهب وجد محمداً يزن للبنات لكل ماجمعت ويكتب ذلك ابن عم آخر في كراسة، ووقف على ينظر فلما جاء دور جليلة أبصر محمداً يداعبها ويطيل في مداعبتها ولكنها لاترد إلا بابتسامة خفيفة ثم تدير وجهها عنه ؛ ورأى على أن ذلك يؤلمه وإن كان يخفي ذلك الألم ، فأوجس في نفسه خيفة عليها فما كان محمد بالذي يرضي أن تتكبر عليه فلاحة وهو الذي يخشي الرجال والشباب بأسه ويتوقون جرأته وبطشه بله النساء والبنات

وفي اليوم الثاني بكر على إلى الحقل في رفقة من بني أعمامه فسبقوا إليه القافلة ، وقد حمل الخادمون لهم سجادة ووسائد فرشوها تحت شجرة ؛ ولم تكد ترتفع الشمس على الأفق حتى أقبلت العاملات ، ونزلت كل واحدة في خطها ، وبعد ساعة أو نحوها خرجن بـ «الوش» الأول ووضعت كل فتاة قطنها في كومة ...

وكانت جليلة في ذلك اليوم فتنة الحقل وبهجته ، عادت إلى وجهها نضرته وبشاشته ، وعاد إلى عينيها بريقهما لولا بقايا من فتور زادتها ملاحة وسحراً ؛ وقام بنو الأعمام متظاهرين أنهم يفتشون وراء الخولى وأعوانه ... وكان يذهب كل منهم إلى حيث كانت جليلة تجمع القطن فيحييها ويلاطفها وهي لا تجيب إلا بابتسامة هادئة ... أما محمد فمر بها وفي عينيه شر وفي وجهه عبوس وحنق

وحاول على أن يذهب كما ذهبوا ولكنه بقى مكانه متردداً ؛ ولقد كان يخيل إليه أن الأنظار جميعاً لا بدأن تتجه إليه إن هو فعل وهو لاقبل له بالغمزات تتبادلها الخبيثات من البنات ؛ وعلى الرغم من أنه كان يدرك أن موسم جمع القطن موسم تطلق فيه الحرية بعض الشيء ، فقد بقى مكانه لا يتحرك ؛ وكان يكتفي بنظرة من عيني صاحبته كلما جاءت إلى « المفرش » على رأس الحقل لتضع فوق كومتها ما جمعت ... على أنه كان يتبرم أحياناً لندرة مجيئها ، ولأنها لاتأتي إلى الترعة لتشرب كما يفعل غيرها كأنها لا تحب أن تبادله النظرات ، وكأنها إنما تأتي لتضع القطن فحسب ...

وجاء فتى من القرية يدعى أحمد طويل القامة أبلج الجبين ، طلق المحيا ، في عينيه خبث وفي نظرته جرأة وذكاء ؛ ودخل بين الخدم ولم يدعه أحد وراح يجيب « الطلبات » في خفة وسرعة ويؤدي ما يطلب منه في لباقة عجيبة ، حتى لقد صار لا ينادى غيره ، فهو طوراً ينقل الفرش إلى الظل ، وطوراً يصنع الشاي ويدير كؤوسه ، وطوراً يشغل نفسه بأعداد الطعام ...

وفي الظهيرة خرجت العاملات يطعمن ويتلمسن في ظلال الشجر مقيلهن ؛ وبسطت كل منهن خرقة فيها طعامها ، وجلسن يأكلن على ضفة الترعة وقام على فمر بهن ، ونظر ماذا تأكل جليلة ، فلم يجد على خرقتها غير الخبز المتخذ من الذرة ؛ وقطعة من الجبن وبعض الملح ، وراعه صفرة فاقعة تمشت في وجهها ،

وشيء من الدهشة والخوف يختلج في محياها . . .

وكانت قد بسطت مائدة الطعام وتحلق حول الصينية النحاسية الكبيرة بنو الأعمام ، فنادوا عليا يجلس وأخذ من الطعام جزءاً بيديه ونادى إحدى الخادمات فأمرها أن تذهب به إلى جليلة ، ولم يبال في تلك اللحظة ما ارتسم على وجوه الجميع من دهشة وسخرية، وتلفت فماذا رأى؟ أيمكن ذلك؟ ها هي ذي جليلة تريد أن ترفض معتذرة ! ولاحظ عليها أنها تمد يدها تارة وتستردها ناظرة إلى أحمد وهو يحدجها حدج الملامة ، ولكنها لم تستطع آخر الأمر إلا أن تأخذ الطعام فتضمه أمامها . ومر بها أحمد بعد برهة وقد حمل إليها بعض الحلوى مما بقي على المائدة فأخذتها مطرقة وفي وجهها ووجهه من المعاني مالا يخفى على أحد

إذاً لقد انكشف الأمر؛ ولكن ليته ما انكشف ! لقد تربد وجه علي وأظلمت في عينيه الدنيا ، وصارت تأكل الغيرة قلبه ، وعبثاً حاول أن يهدئ نفسه ، فلقد غابت عنه فلسفته ؛ وذهل منطقه وتبدد حلمه ، أوتبيعه هذه الفتاة من أجل أحمد ؟ وكيف اجترأت على خداعه والمكر به ؟ ألا إنه لمخدوع غر ثم إنه لمائق أحمق . ذلك ما كانت تحدثه به نفسه ؛ وفي تلك اللحظة التي يعمى الحقد فيها البصائر ، حدث علي محمداً حديثاً ، يا شؤمه من حديث !

انقضى اليوم ، وسار البنات تلقاء القرية ، وركب علي دابة لتعود به فما كان مما به من هم يقوى على المشي ، وكأنما أرادت الظروف أن تكيد له كل الكيد فها هو ذا يرى جليلة وأحمد تحت شجرة يتناجيان ، ولما رآه الفتى من بعد أسرع الخطى واختفى ... واختفت جليلة ولم تعد بعد لجمع القطن

انقضت أيام وفرغت القرية من جمع القطن ، وشملها فتور الخريف وطافت بها طيوفه .. وفي ذات ليلة كان يقف محمد وإلى جانبه أحد الخفراء وعلى مقربة منهما رجال لفهم الظلام وقد هجعت القرية ، وتقدم أحد الرجال فهمس في أذن محمد وعاد إلى موضعه ، وغمز محمد الخفير ، فسحب حماراً ومشى به خطوات وقد أقبل نحوه شبح فلما سار أمامه أمسك به ونفخ في « صفارته » وتجمع الرجال وقد هب بعضهم من النوم ، وجاؤ يستفهمون فوجدوا أحمد يساق إلى « دوار » العمدة لأنه سرق حماراً من زريبة البستاني

وشهد الشهود وكتب المحضر وسيق المسكين إلى « نقطة البوليس » ، وأصبح حديث القرية كلها في اليوم التالي . وراحت جليلة تبكي حظها العاثر فلا أقل من ستة أشهر يقضيها فتاها في السجن كما يخبرها بذلك العارفون ...

وعرف العمدة حقيقة الأمر ، فدعا أبا الفتاة وأمها ، وأمرهما في لهجة صارمة أن يزوجاها من ابن خالتها إسماعيل خشية أن يفتضح أمرها وأن يتقول عليها الناس الأقاويل ... وجيء بالمأذون بعد ساعة وأرغمت البنت إرغاماً على القبول فأعطت « التوكيل » وإنها لتوشك أن تموت من الغيظ والحسرة . .

وسافر علي بعد أيام ولو أنه بقي لرأى مكان جليلة فتاة غير فتاته التي أحبها . لو أنه بقي لرأى بقايا هيكل من جمال وسحر ، يبعث منظره اليوم في النفوس من حسرة وألم بقدر ما كان يبعث فيها أمس من نشوة وفتون ، وهل كان يقوى على رؤية جسدها الناحل الهزيل ووجهها الذي يلوح عليه شبح الموت ، وعينيها اللتين أصبحتا تعبران عن الألم واللوعة ؟ حسبه ما يؤرقه إذا أراد النوم ، وما يشغل باله من هم كلما ذكر ذلك الحلم الذي أفاق منه على توسل جليلة ودعوة أمها

الخفيف